تقديم

العمل الأدبى حقيقة واحدة وإن تعددت المداخل إليها : فالمدخل الأدبى ، والمدخل النفسى ، والمدخل الفنى ، كلها سبل تلتقى فى النهاية عند غاية واحدة :

حقيقة العمل الأدبى ، كيانه الخاص ، ذاتيته : ونجاحها إنما يقاس بوصولها إلى هذه الغاية أو اقترابها منها . فإذا سمعت عن اختلاف هذه المداخل — أو المناهج كما تسمى أحياناً — فاعلم أنها لا تتنافر ولا تتصادم إلا عند من لا ينتسبون إلى دراسة الأدب ، وإنما ينتسبون إلى نصرة مذهب اجتماعى ، أو ينتمون إلى مدرسة من مدارس علم النفس ، أو ينظرون إلى العمل الأدبى بمنظار معلم البلاغة ، وكل واحد من هؤلاء لا يرى إلا جانبا من القشرة الخارجية للعمل الأدبى ، ولا يستطيع النفاذ إلى صميمه ولبابه. فأما الذى يدرس الأدب دراسة علمية ، تعنى به من حيث هو أدب ، لا من حيث هو وثيقة اجتماعية أو نفسية أو مظهر أسلوبى ، فمثل هذا الدارس لا يبالى أن ينفذ إلى حقيقة العمل الأدبى من أى مدخل يراه مناسباً ، بشرط أن ينتهى بنا إلى فهم لكيان العمل الأدبى ، من حيث هو أثر فنى يتألف من ألفاظ . واختيار المدخل المناسب أمر راجع إلى ثقافة الناقد وحسه التاريخى وفطنته النفسية ، وربما كان بُعد المدخل متناسباً مع عمق النظرة إلى العمل الأدبى والمقدرة على كشف أغواره .

وموضوع هذا البحث يتناول جانباً من البناء الفنى للرواية ، وهو شخصية البطل ، ولكنه يدرس هذا الجانب على أساس اجتماعى : وقد كان الكاتب صريحاً وأميناً حين قرر أن نقص الدراسات العملية فى تاريخنا الاجتماعى ينعكس على عمله بوصفه ناقداً أدبياً ، فهو مضطر — من ناحية

- إلى الخوض فى دراسات لا تدخل فى صميم عملـــه ، كما أنه مضطر — من ناحية أخرى — إلى الاكتفاء بالتعميمات حين يعوزه التفصيل الدقيق . ولكننى أعتقد أن التوفيق قد حالفه إلى حد كبير فى تتبع المسار التاريخى لتطور شخصية البطل الروائى من خلال تطور المجتمع المصرى ، والانتفاع بهذه الدراسة الاجتماعية فى تفسير الأعمال الروائية التى تعرّضَ لدراستها .

ومع ذلك فإنى أخالفـــه فى تلخيصه لمشكلة البورجوازية الصغيرة — وهى التى تتمثل فى الجانب الأكبر من الأعمال المدروسة — بالسعى إلى تغيير العلاقات الاجتماعية السائدة . فالبورجوازية الصغيرة طبقة قلقة غير مستقرة ، تتجاذبها الطبقة الأعلى والطبقة الأدنى ، ومن ثم تتعرض للصراع بين قيم الطبقتين ، وقلما تسعى إلى تغيير شكل العلاقات الاجتماعية السائدة ، لأن هم البرجوازى الصغير هو الصعود أو التسلق . والغريب أن الدراسات التطبيقية التى قدمها إلينا الكاتب تؤكد هذا التصور الأخير ، أكثر مما تؤكد الفكرة النظرية التى يقدمها عن مشكلة البورجوازى الصغير .

والكاتب ناقد أدبى وليس باحثاً اجتماعياً . فلا عليه إذا كانت بعض قضاياه الاجتماعية عرضة للمخالفة ما دام تحليله للأعمال الأدبية متسما بالنفاذ والصدق .

أ. د. شكرى محمد عياد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

— ١ —

هذه الدراسة محاولة للاستفادة من منهج التفسير الاجتماعى للأدب فى تأويل شخصية البطل فى الرواية العربية .

وقد تناولت هذه الدراسة شخصية البطل المعاصر فى الرواية العربية الحديثة فى مصر ، على ضوء التطور الاجتماعى الذى شمل مصر منذ مطلع القرن العشرين حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . ثم حددتُ مادة الدراسة فجعلتها منحصرةً فى إنتاج الروائيين المصريين ، كما أنى خصصت هذا الإنتاج بالرواية العصرية دون الرواية التاريخية ، وذلك بهدف تجانس المادة الروائية وإمكان الوصول إلى نتائج علمية .

منهج الدراسة :

ومنهج الدراسة يستند إلى حقيقتين :

١ — **الحقيقة الأولى** : فكرة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وقد رأيت — استناداً إلى أفكار عدد من نقاد الأدب وعلماء الاجتماع — أن البطل إنعكاس للواقع الاجتماعى ، بمعنى أنه يعد خلقاً اجتماعياً بحتاً ، وإن كنت لا أغفل الميراث الحضارى للشخصية ، ومكوناتها ذاتها بكل ما فيها من تعقيد .

٢ — **أما الحقيقة الثانية** : فتقوم على اعتبار أن فكرة البطل فى الرواية الحديثة فكرة بورجوازية ، ومعنى ذلك أن ظهور البطل فى الرواية مرتبط بظهور الطبقة البورجوازية على المسرح السياسى والاجتماعى .

وقد وقفت – متأملاً – أمام البناء الاقتصادى والفلسفى للمجتمع البورجوازى . وحاولت أن اكتشف طبيعة هذا البناء وتغيره من المرحلة التنافسية الليبرالية إلى المرحلة الاحتكارية وتأثير ذلك على البناء الروائى ممثلاً فى شخصية البطل .

– ٢ –

فى الفصل الأول – المنحنى التاريخى للبطل – عالجت ، أساساً ، اقتران فكرة البطل فى الرواية بتطور الطبقة البورجوازية . ففكرة البطل البيرونى The Byronc Hero تعبر عن البورجوازية الليبرالية التى اعتنقت سياسة الحرية الاقتصادية Laisser Faire وأكدت النزعة الفردية غير أن صورة البطل لا تلبث أن تتغير عندما تتطور الطبقة البورجوازية بظهور الرأسمالية الاحتكارية بفعل تطور الفن الإنتاجى ، واشتداد ساعد الطبقة العاملة من جانب آخر ، فضلا عن عوامل أخرى ، لا مجال لها فى هذه المقدمة ، إذ أنها ذكرت بالتفصيل فى موضعها من الفصل الأول ، ومن ثم تتلاشى الصورة التقليدية للبطل ليسود الشكل الروائى صورة الإنسان العادى وتبدأ شخصيات كُثُرٌ تأخذ مكانها فى البناء الروائى والاجتماعى فى آن. أضف إلى هذين النموذجين ظهر نموذج جديد فى الأدب الاشتراكى وهو البطل الإيجابى The Positive Hero الذى يعبر عن القوى البازغة فى المجتمع .

على ضوء هذا التصور العام مضى كاتب هذه الدراسة يتلمس الطريق مع البطل فى الرواية المصرية ، محاولا تعليل ما يطرأ على صورته من تغير ، أو تغيير مراعيا المرونة – قدر الامكان – فى التطبيق بما يتلائم وطبيعة فن الرواية العربية فى مصر وظروف البنيان الاجتماعى بقاعدته الاقتصادية ، وبقسمته الفكرية والسياسية ، والعقلية وبرؤيته للإنسان والأشياء .

وإن بدت للقارئ ثمة رؤى شمولية هنا أو هناك ، فمرد ذلك إلى افتقار المكتبة العربية إلى الدراسات الأكاديمية التى تعالج قضايا الواقع والفكر وما ينجم عنهما .. فما أحوجنا إلى دراسات عن النظرية الاقتصادية التى تتحكم

فى انساق البناء الاجتماعى للمجتمع المصرى . وهناك — مثلا — سؤال هادئ يمور فى نفس كاتب هذه الدراسة عن طبيعة الطبقة الرأسمالية فى مصر قبل الثورة ، وهل كان ثمة صراع طبقى حقيقى بين الطبقة الرأسمالية الزراعية والرأسمالية الصناعية ؟ أم أن هذا التصور لايستقيم مع فكرة قد تبدو بسيطة ، وإن كانت ذات دلالة عميقة ، وهى أن رجال المال والاقتصاد فى مصر كانوا أعضاء فى مجالس إدارات شركات زراعية وصناعية فى آن . هنا .. ألا تتعرض فكرة « الصراع » إلى زعزعة أركانها . ثم ألا يكون مفهوم سياسة « أصحاب المصالح الحقيقية » هى التى تحكم هذا المجتمع بل وتصوغ فكره السياسى وليست فكرة الصراع ؟!

وما أثر ذلك فى نظرية « الوعى الاجتماعى » .. ما دور الجاليات الأجنبية فى الاقتصاد المصرى وتأثير ذلك على القوى البشرية المفكرة .. ومدى تأثير الامتيازات الأجنبية فى البناء النفسى للإنسان المصرى وطبيعة دور المثقفين — نتاج هذه المرحلة — ما تأثير « أصحاب المصالح الحقيقية » على السياسة والفكر : كل هذه وغيرها ، قضايا شعرت بافتقارى إليها. وأنا على وعى تام بأنه لو توفرت تلك الأدوات لأمكننى استثمارها فى تفسير صورة البطل فى الرواية العربية فى مصر تفسيرا نقديا مستنداً إلى مذهب اجتماعى فى تفسير الأدب . حسبى أن أكون واضحا حين أشير إلى القصور فى التحليل الذى يعتور بعض قضايا هذه الدراسة .

وهذه الفكرة تسلمنا إلى حاجتنا إلى دراسات متخصصة عن الأحزاب السياسية ودورها ، والأسس الفلسفية التى استندت إليها — إن وجدت — فكل هذه القضايا ، روافد تساهم — فى التحليل الأخير — فى الكشف عن أصول المذاهب الأدبية والمدارس الأدبية ، فمن المعلوم أن المذاهب الأدبية تنهض على دعامات فلسفية متينة تبرز ماهية دورها ورؤيتها للإنسان والمجتمع .

مهما يكن الأمر ، فقد حاولت قدر ما يسمح به طبيعة الموضوع الالتفات إلى تأثير « الشخصية المصرية » و « القومية المصرية » بوصفهما مرآة تعكس

مدى بروز دور الفرد على المسرح السياسى والاجتماعى .

وقد لاحظت أن نشأة الطبقة البرجوازية فى مصر تقابلها فى الشكل الروائى فكرة البحث عن البطل أو افتقاد البطل وبتعاظم دور البرجوازية المصرية فى الحياة السياسية و الاقتصادية تظهر شخصية البطل الذى يعبر عنها فى طور ازدهارها : « البطل البيرونى » . على أن صورة البطل البيرونى فى الرواية العربية الحديثة فى مصر قد ارتبطت بازدهار الفكر الليبرالى — الأساس الفكرى للبورجوازية — وبتأكيد وضعها الاقتصادى والاجتماعى . وحين تتحول الطبقة البورجوازية المصرية إلى طبقة احتكارية محافظة يخلى البطل البيرونى مكانه فى الشكل الروائى ليحل محله الإنسان الصغير : المطحون ، يطالعنا فى صور متعددة « هامشية ، أو متداعية ، أو مغتربة » تعكس بتآلفها أزمته فى صراعه مع المجتمع وشعوره بالإحباط وعدم القدرة على الوصول إلى التوازن بين الذات والموضوع .

وقد طبقت هذه الأفكار على عدد من الروايات البارزة فى تراثنا الروائى وكانت عنايتى بدراسة شخصية البطل بالذات دون أن أتوسع فى بحث البنـاء الروائى أكثر مما يقتضيه الموضوع .

وبعد ، فهذه الدراسة النقدية محاولة لتبين العلاقة بين الشكل الأدبى من ناحية وبين البيئة الاجتماعية من ناحية أخرى .

وقد آثرت أن أقدم للقارئ هذه الدراسة — وهى فى الأصل رسالة لنيل درجة الماجستير من جامعة القاهرة « ١٩٧١ » — كما هى بكل بكارتها .

بقيت كلمة وفاء أقدمها إلى أستاذى الجليل الدكتور شكرى محمد عياد المشرف على هذه الدراسة وإلى أستاذىَّ الجليلين الدكتورين عبد الحميد يونس وعزالدين اسماعيل على ما أبدوه من ملاحظات وأفكار أثناء المناقشة فقد أفادتنى فى تصور المنهج النقدى لما أحاوله من تجارب نقدية مقبلة .

مدينة الأوقاف — الدقى
مارس ١٩٧٩

دكتور أحمد ابراهيم الهوارى

مدخـــــــل

يستند هذا البحث فى محاولته تفسير البطل المعاصر فى الرواية العربية الحديثة فى مصر ، إلى حقيقتين :

الحقيقة الأولى : فكرة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ولاريب أنه لاوجود للمجتمع دون الفرد ،ولا دور للفرد بغير المجتمع ، بمعنى أن التأثير الاجتماعى للفرد لا يتحقق إلا فى المجتمع ؛ وإن كان ثمة عدم تكافؤ بين وزن كل منهما. فليس من شك أن للمجتمع الاعتبار الأول ، بمعنى أنه المؤثر فى الفرد وفى مثله وفى تحديده لإيديولوجيته . ومن ثم ، فقيمة الفرد تتحدد — إلى حد كبير — بنظرة المجتمع إلى الفرد . والمجتمع بداهة ، لايتكون من مجرد تجمع أفراد يعيش كل منهم فى عزلة ، وفى عالمه الخاص ، بمعزل عن مشكلاته وهمومه . ذلك لأنه يستحيل تصور الفرد منعزلا عن ظروفه الإجتماعية التى تحيط به ، والعلاقات الاجتماعية التى يمكن أن تربطه بغيره ومن يعتمد عليهم فى كيانه ووجوده . إذ لو صدق هذا التصور لكان الفرد تمثالا جامدا لا حراك فيه ولا يد تفكير فردى . والسبب فى ذلك هو أن ما يكون الفرد نفسه وعالمه الباطنى ذاته واحتياجاته ومطامحه وميوله ووجهات نظره إلى الأشياء والإنسان إنما هى الظروف الاجتماعية التى تحيط به وتعمل على تطويره ونموه وتهذيبه(١) . فالفرد لا يعيش إلا فى أحضان المجتمع . ولا يمكن اعتبار الفرد ، فى أى مرحلة من مراحل التاريخ ، منعزلا عن العلاقات الاجتماعية التى تمور من حوله . وسيحاول الباحث أن ينفذ — من خلال هذه الفكرة — إلى فهم متعمق للطبيعة البشرية . . ما هى ؟ ثم هل تغيرت بتغير المجتمعات التاريخية أم ظلت ثابتة لا تتبدل ؟ وما تأثير ذلك على صورة البطل فى الرواية الحديثة ؟

ثمة افتراض — إذن — بوجود علاقة جدلية بين النظرة إلى ماهية الطبيعة البشرية وبين صورة البطل، وغاية الباحث أن يصل إلى لباب فكرة

---

(١) ب . بيخوفسكى : الفرد والمجتمع ، ص ١٨ من ترجمة هنرى رياض ، منشورات دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى كانون الأول (ديسمبر ١٩٦٦) .

البطل فى الرواية الحديثة . وهذا يتطلب دراسة مابين البطل ومجتمعه من تفاعل . فهل همسات المجتمع تلقين للبطل : . وهجمات البطل تجسيم لأحلام المجتمع ؟(١)

أما الحقيقة الثانية : فتقوم على اعتبار أن فكرة البطل فى الرواية الحديثة فكرة بورجوازية تماما . وهذه الفكرة تستمد أساسا من المفهوم الفنى للرواية الحديثة إذ جاءت تعبيراً عن مجتمع الطبقة الوسطى الذى يختلف فى بنائه عن المجتمع السابق عليه ، أى المجتمع الاقطاعى . فالبحث عن الفرد ووضعه هذا المجتمع البورجوازى ، ومتابعة ما يطرأ عليه من تغير يستلزم بالضرورة البحث فى تغير النظرة إلى الفرد وبالتالى إلى البطل ثمـــرة هذا التغير . فثمة علاقة جدّ لينة بين طبيعة البناء الاجتماعى — من خلال وضع الطبقة البورجوازية فى هذا البناء — وما يطرأ على أنساقه وبصفة خاصة النسق الاقتصادى من تغير ، وبين صورة البطل فى الرواية الحديثة :

* * *

نقطة البداية فى البحث تبدأ بالحديث عن الشخصية المحورية ، وهى الصورة التقليدية للبطل فى الرواية الحديثة . وهذه الرؤية تساعدنا على تعقب عملية الفكر والتجربة التى ترقد فى عقل البطل ووجدانه وما تعكس من واقع اجتماعى(٢) .

وما دام البطل يولد من رحم المجتمع ، بمعنى أنه انعكاس للواقع الاجتماعى ، فهو بهذا المفهوم يعد خلقا اجتماعيا بحتا(٣) . ومن ثم ، فسنعرض

---

(١) أمين الخولى : « الكلمة . . والأبطال » مجلة الأدب ، ص ٦٥٦ ؛ فبراير ١٩٥٩ .

(٢) See: Gifford, Henry, The Hero of his Time, A theme in Russian Literature, London, Edward Arnold and Co., 1950, p. vii .

(٣) See: O. Faolain, Sean,: The vanishing hero, Studies in novelists of the twenties, p. xii.

لطبيعة البنية الاجتماعية وكنه البناء الاجتماعى ، ودور الفرد ووضعه الاجتماعى وطبيعة الطبقة والوضع الطبقى . وطبيعة العلاقة بينه وبين السلطة أو مايعرف بالضبط الاجتماعى . ومدى تقبل الفرد للقيم السائدة فى المجتمع أو تمرده عليها ومدى تفاعله مع القيم الجديدة وامتصاصه لمضامينها .. فمشكلة البطل هى فى التحليل الأخير مشكلة المجتمع . وثمة سؤال يطرح نفسه : ما أثر التغيير فى البناء الاجتماعى على الفرد وبالتالى البطل ؟ .

* * *

وعندما نتحدث عن التغيير هنا ، فإنما نعنى التغيير الاجتماعى بالمعنى العميق للكلمة .. أى مايطرأ على البناء من تغييرات جذرية فى أنساقه ووظائفها كما نعنى أيضا القيم السائدة فى هذا البناء وما يعتورها من تغير .

ينبغى أن ندرك معنى تغير البناء الاجتماعى(٥) لا التفاعل أو المناشط

---

(٥) تنبع الفكرة الرئيسية للبناء الاجتماعى من تصور المجتمع بوصفه وحدة متناسقة ، متماسكة يتمتع بدرجة عالية من الديمومة والبقاء . وهو عبارة عن نسق من الأبنية المنفصلة المتمايزة ، ورغم هذا تقوم بينها علاقات متبادلة . وليس من شك فى وجود علاقات متبادلة بين النسق الأيكولوجى (علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية العامة) والنسق الاقتصادى ، على أساس أن الحياة الاقتصادية تتأثر بالظروف الأيكولوجية المحيطة بالمجتمع . والشىء نفسه يقال بالنسبة لكافة الأنساق فى علاقتها بعضها ببعض . والكلمة نفسها تشير إلى هذا التلاحم الذى يشد بعضه بعضاً كالبنيان المرصوص .

ويتعين لاستمرار « البناء الاجتماعى » وجود درجة معينة من الاطراد والاتساق فى الحياة الاجتماعية ، وإلا استحال على أعضائه العيش معاً . فالناس فى الواقع لا يستطيعون الانصراف إلى شئونهم إلا لأنهم يعرفون نوع السلوك الذى يرتقبه الناس منهم ؛ كما أنهم ينظمون نشاطهم تبعاً لقواعد مرسومة وحسب قيم معينة .

معنى هذا أن دراسة « البناء الاجتماعى » لا تقتصر على دراسة العلاقات الدائمة الثابتة بين الأنساق الاجتماعية أو العلاقات التى تنشأ بين الأفراد ، بل تتعدى ذلك لتنظر إلى المجتمع على أنه نسق من المعايير والقيم .

إقرأ بالتفصيل : د. أحمد أبو زيد : البناء الاجتماعى ، ج ١ ، ص ١٥ من الطبعة الثانية الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦ إيفانز بريتشارد : الأنثروبولوجيا الاجتماعية ، ص ٢٨ من ترجمة د. أحمد أبو زيد، منشأة المعارف بالإسكندرية ، تايلور ص ٤٩ ـ

التى تصدر عن أفراد المجتمع فالبناء عملية مستمرة ، تتمثل فى الحركة الدائمة الدائبة المتصلة لتفكك العلاقات الاجتماعية ثم إعادة تركيبها . وهذه مسلمة أولى يتعين علينا أن نكون على وعى عميق بها ، ولذا، يجب ألا نخلط بين « نشاط » الأفراد داخل البناء وبين تغيرات البناء التى تكون وحدها «التغير الاجتماعى » ففى الفيزياء الذرية — مثلا — لا ينظر إلى قضيب من حديد على أنه خامل ، بل إن البروتونات والإلكترونات فيه تكون فى حالة من النشاط الدائم . ولكن شكل القضيب يظل ثابتا نسبيا(٦) .

فى داخل هذا الإطار البنائى يمكن النظر إلى مشكلة البطـــل بوصفها ثمرة للعلاقة بين القوى المنتجة فى المجتمع . ومعنى هذا أن صورة البطل تبدأ فى التغير عندما يتغير البناء ، بحدوث صدع فى البناء . هنا يكمن منحنى التغير فى صورة البطل ، فتغير وضع الفرد يفعل تغير انساق البناء الاجتماعى ، وبصفة خاصة النسق الاقتصادى ، يسلمنا فى التحليل الأخير إلى ظاهرة تلاشى البطل .

ومن المعروف أن البناء الاقتصادى يكون هو الأساس الذى يتفرع عنه عدد من العلاقات الاجتماعية والايديولوجية التى تكوّن البناء الفوقى للمجتمع . ومن خلال مفهوم البناء الفوقى والتحتى ، وهو المفهوم الذى يفسر كيف أن أسلوب الإنتاج « من قوى إنتاج وعلاقات إنتاج » يحدد فى التحليل الأخير كافة مظاهر الحياة الاجتماعية ويكشف الصلة بين العلاقات الاقتصادية

=أحمد أبو زيد، دار المعارف ١٩٥٧ ما وراء التاريخ : وليم هاولز ، ص ٦ من ترجمة أحمد أبو زيد دار النهضة ١٩٦٥ ، د. مصطفى سويف : مقدمة لعلم النفس الاجتماعى ، ص ٥١ من الطبعة الثانية ، الأنجلو ١٩٦٦ ، رالف لنتون ، ص ١٧٩ من دراسة الإنسان ترجمة عبد الملك الناشف ، المكتبة العصرية بيروت ، صيدا ١٩٦٤ ، ف. جوردون تشايلد : التطور الاجتماعى ، ص ٧٥ من ترجمة لطفى فطيم ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ . جورج سيمون الإنسان فى المجتمع ، ص ١٦٠ من ترجمة د. عبد المنعم شوقى ، النهضة العربية ١٩٦٧.

(٦) د. عاطف غيث : التغير الاجتماعى والتخطيط ، طبعة ١٩٦٢ ، دار المعارف مصر ، ص ٢٢ .

الاجتماعية وكافة العلاقات الأخرى السائدة فى المجتمع – يحاول الكاتب من خلال هذا المفهوم أن يبحث عن وضع الفرد داخل هذا الإطار البنائى وأثر ذلك على صورة البطل فى الرواية .

ويترتب على الفكرة التى ترى أن البناء التحتى يحدد طبيعة البناء الفوقى أن كل تغير يطرأ على البناء التحتى ؛ أعنى علاقات الإنتاج (المادية) ، يفضى إلى تغير البناء الفوقى على مستوى الدولة والقانون والعلاقات السياسية والأخلاقيات الإيديولوجية ، كما أن البناء الفوقى يؤثر بدوره على علاقات الإنتاج ، فبوسعه أن يؤخر احلال شكل معين لهذه العلاقات أو يعجل بإحلال شكل آخر (٧) . ومن ثم فالعلاقة متبادلة بين البناءين : التحتى والفوقى . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، أن البناء الفوقى ، وإن كان يثمره ويحدده الأساس – وهذه حقيقة فى كل الأحوال – إلا أن له ، أى للبنـاء الفوقى استقلالا نسبياً ولصوره ، لصور الوعى : الدين ، الفن ، الفقه ، السياسة ، تطورها الذاتى نسبيا وقوانينها المستقلة نسبيا .

طبقا لهذا التحليل البنائى ، فالفرد ثمرة للعلاقات والقوى المنتجة فى المجتمع . فهو يخرج من بطن أمه لايعلم شيئاً ، ويجد نفسه إزاء وضع طبقى محدد ومستقل عن إرادته . من هنا تبدأ بذرة الإحساس الطبقى ، وتنعكس هذه الحساسية الطبقية على الفرد – البطل – فعليه أن يصارع من أجل تحقيق ذاته ، والعيش مع المجتمع وليس فى المجتمع : وهو فى مسيرته يواجه بعقبتين ، العلاقات والإيديولوجية السائدة ومحاولته التمرد عليها ، ثم إطعام المجتمع بما يحمله من أفكار جديدة .. بين هاتين العقبتين ترقد أزمته وتفرخ .

* * *

وثمة سؤال يطرح نفسه ، ماهى الطبقة ؟ ثم ما مدى ارتباط مصير الفرد

---

(٧) See: Fundementals of Marxism Leninism, second revised edition Progress Publishers, Moscow, 1964, pp. 122 – 125.

بالطبقة وتمرده عليها ؟ بقول آخر ما مدى حده الشعور الطبقى والوعى به ؟ فالطبقة عبارة عن « مجموعة كبيرة من الأفراد تختلف عن غيرها بالوضع الذى تحتله فى نظام تاريخى محدد للانتاج الإجتماعى ، بعلاقاتها (التى يحددهـا ويصوغها القانون غالبا) بوسائل الإنتاج ، بدورها فى النظـام الاجتماعى للعمل ، ومن ثم ، بقدر امتلاكها لنصيبها الذى تحصل بعضها عليه من الثروة الاجتماعية . فالطبقات هى مجموعات من الأفراد يستطيع بعضها تملك عمل الآخر وفقا للأوضاع المختلفة التى تحتلها فى نظام اقتصادى اجتماعى محدد» (٨) .

ويهمنى من الاهتمام بالطبقة الوضع الاجتماعى للفرد فى المجتمع البورجوازى بصفة خاصة ، وهو المجتمع الذى عبرت عنه الرواية الحـديثة . أضف إلى ذلك أن البطل المعاصر فى الرواية العربية فى مصر هو — كما سيتبين من النماذج الدالة — بطل بورجوازى يعكس أزمة البورجوازية فى مجتمع الدول النامية.

ورب ما ساعدت الرؤية الاجتماعية للفرد ودوره فى التاريخ فى إلقاء مساقط ضوئية على قضية تلاشى البطل فى الرواية :

دور الفرد فى التاريخ :

لعل بليخانوف (١٨٥٦ — ١٩١٨) من أبرز المفكرين الاجتماعيين الذين تعرضوا بعمق ونفاذ بصيرة لقضية دور الفرد فى التاريخ ، ودراسته محاولة موضوعية لوضع دور الفرد فى الإطار الطبيعى . هذا الفرد العادى الذى يمكن — إذا ما أتيحت له السبل — أن يشق طريقه ويصل إلى مرتبة هذه البطولة بطولة الإنسان العادى وليس بطولة الذات المنفردة ، وستسهم هذه الرؤية الاجتماعية فى تفسير تلاشى البطل فى الرواية الحديثة ، كما تشى بظهور البطل الإيجابى فى الرواية الفنية .

يرى « بليخانوف » أن الأفراد يمكنهم أن يؤثروا فى مصير المجتمع بفضل الميزات التى يتسمون بها ، وأحيانا يكون هذا التأثير على قدر ...

---

٨ — مادة Classes

Adictionary of Philosophy, Edited by M. Rosenthaland P. Youdin, Progress Publishers, Moscow, 1967, p. 78.

الأهمية ،ولكن إمكانية ممارسة هذا التأثير ومداه ، مرتبطان بشكل تركيب المجتمع ، وبعلاقة القوى المنبثة فى داخله . وتعد شخصية الفرد مجرد (عامل) فى التطور الاجتماعى ، حيث تتحدد زمانا ومدى بالقدر الذى نسمح به العلاقات الاجتماعية القائمة . وربما جاز لنا القول : إن مدى التأثير الشخصى للفرد قد يتحدد أيضا بمواهبه ، ونحن نوافق على هذا إلا أن الفرد يستطيع أن يظهر مواهبه فقط عندما يحتل مركزاً فى المجتمع يتيح له ذلك ... فالنظام الاجتماعى فى فترة معينة يحدد الدور ، ومن ثم الأهمية الاجتماعية التى قد تهبط على بعض الأفراد الموهوبين أو العاجزين ، وهذا يتفق تماما مع مفهوم التطور الاجتماعى بوصفه تعبيرا عن قوانين محددة . فدور الأفراد ومدى تأثيرهم الاجتماعى – سلبا وإيجابا – يتحدد بشكل النظام الاجتماعى السائد فى المجتمع . فالأفراد ذوو التأثير بوسعهم – بفضل مايتمتعون به من كفايات عقلية وبفضل شخصيتهم – تغيير شكل الملامح التى تتسم بها الأحداث وكذلك نتائجها الخاصة ، ولكنهم لايستطيعون تغيير اتجاهها العام الذى يتحدد بقوى أخرى .

• • •

ولأجل أن يتهيأ للفرد الذى يتحلى بنوع معين من الموهبة الفرصة التى يحدث بها تأثيراً عظيما فى مسار الأحداث لابد من توافر شرطين :

الأول : أن تكون هذه الموهبة متوافقة مع الحاجات الاجتماعية التى تطرحها المرحلة التاريخية أكثر من أى فرد آخر . وبالطبع ، لو كان نابليون يتمتع بموهبة موسيقية بدلا من عبقريته العسكرية ، لما اضحى إمبراطورا .

والثانى : ألا يقف النظام الاجتماعى القائم حجر عثرة فى طريق الفرد الموهوب والذى يعد معطاة تتطلبها هذه المرحلة .

ومنذ أمد بعيد لوحظ أن الموهوبين العظام يظهرون حينما تتهيأ الشروط الاجتماعية الملائمة لنموهم . ويعنى هذا أن كل صاحب موهبة ، يظهر بالفعل، ويصبح قوة اجتماعية ، ما هو إلا ثمرة للعلاقات الاجتماعية .

وما دام الحال كذلك ، فمن الواضح معرفة لماذا يستطيع الأفراد الموهوبين ، كما ذكرنا ، تغيير الملامح التى تتسم بها الأحداث وليس الاتجاه العام لها ، تفسير ذلك أنهم هم أنفسهم نتاج هذا الاتجاه(٩) . ثم يناقش رأى المؤرخ الفرنسى « مونو » الذى يركز فيه على التغيرات البطيئة والعميقة التى تطرأ على الأحوال الاقتصادية والنظم الاجتماعية ، وما الأفراد العظام إلا رموزا لهذا التطور . ومعنى هذا – فيما يرى « بليخانوف » – أن العامل الفردى ليست له أهمية تذكر فى التاريخ ، ومن ثم ، فكل شئ يمكن أن يرد إلى عملية الأسباب العامة ، وهذا تطرف بعيد المدى . فالتاريخ لايسير رغما عن الأفراد – كما يفهم ضمنا من هذا الرأى – وإنما ينبغى أن يكون للأفراد دور يساهمون به فى صنع التاريخ . إذ أن هذا الرأى يوحى بأن التاريخ كيان صوفى غامض ، يتبع قانونه الخاص ولا يعبأ بإرادة البشر . ويترتب على ذلك أن ينظر إلى التاريخ باعتباره حقيقة تعلو على الإنسان ولا تصدر عنه ، وأن البشر أدوات تحركها قوى غامضة ، خفية وتدفع بها إلى مصير محتوم ليس لهم عليها سلطان »(١٠) وعلى هذا « فالإنسان العظيم لايعد عظيما لما يتمتع به من صفات فردية تسم الأحداث التاريخية العظيمة بميسمها ، ولكن لأنه يمتلك قدرات تهيئ له مقدرة أكبر لخدمة المطالب أو الحاجات الاجتماعية العظيمة لعصره ، هذه الحاجات التى تعد نتاجا للأسباب العامة والخاصة . وإن « كارلايل » يطلق على الرجال العظام المبادرون. وهذا الوصف فى موضعه تماماً ، فالرجل العظيم يرى أبعد من الآخرين ، ويرنو بقوة أكثر من الآخرين ، فهو يحل المشكلات العلمية التى نمت فى ظل المجتمع القديم والتى يطرحها التطور الثقافى للمجتمع ، كما أنه يشير إلى الحاجات

---

(٩) Plekhanov, George, : The role of the individual in history, international Publishers Co., ine. U.S.A. 65, pp. 41, 48.

(١٠) د. فؤاد زكريا : الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى ، مركز كتب الشرق الأوسط ، الطبعة الأولى ، مايو ١٩٥٧ ، ص ٢٩ .

الاجتماعية الجديدة التى خلفها التطور السابق ونجمت عنه ، وهو يتخذ المبادرة للوفاء بتلك الحاجات . إنه بطل ، لكن ليس بمعنى أنه يوقف المسار الطبيعى للأشياء أو يغيره ، ولكن بمعنى أن نشاطه يعدتعبيرا واعيا وحراً عن هذا المسار الضرورى وغير الواعى . وهنا تكمن كل قوته غير أن هذه الأهمية هائلة وتلك القوة فظيعة » .

« نحن لانصنع التاريخ وعلينا أن ننتظر حتى يصنع نفسه ، هكذا قال بسمارك ، لكن من يصنع التاريخ ؟ يصنعه الإنسان الاجتماعى وهو العامل الوحيد ولكن الإنسان إذا خلق فى فترة معينة علاقات معينة دون أخرى ، فمن المسلم به أن يكون هناك سبب ما لذلك يتحدد بطبيعة القوى المنتجة . وما من إنسان عظيم يكون بوسعه أن يصنع التاريخ ، ومن هذا التصور لايجدى فتيلا أن يقدم عقارب الساعة ؟ فلن يعجل بسير الزمن كما أنه لن يعود به إلى الوراء ... فمفهوم العظمة مفهوم نسبى »(١١) .

وهذا المفهوم الذى جاء به « بليخانوف » يعد رداً إيجابيا على الفلسفة الاجتماعية الميكانيكية التى سادت القرن الثامن عشر والتى بدأت بالفرد وانتهت به وكيفما كان الأمر فقد أثمرت على الصعيد الأدبى ، البطل المتمرد. أما الرؤية الاجتماعية التى كشف بها « بليخانوف » الغطاء عن الفرد فهى شعاع ينير الطريق للبطل الإيجابى ، الذى يريد أن يخلق مجتمعا جديداً من خلال فهمه لطبيعة القوى المنتجة فى المجتمع . ولعل « كودبل » يزيد مفهوم البطل الإيجابى وضوحا ، فهو يرى أن البطل « انسان ... يكون تأثيره على بيئته أكبر بكثير من تأثيرها عليه... وهو يسيطر على الأحداث لا أنه يساير القانون الذى جاءت الأحداث نتاجا له ... والبطولة ليست شيئا ما يمكن أن يحدد من خصال شخصية البطل وحدها ، بل إن الظروف هى التى تخلق البطل .... فكما يجب أن يتوفر شئ ما فى الأحداث ، كذلك لابد من توفر

---

(١١) Plekhanov, George : Op. Cit. pp. 58, 60, 62.

شئ مافى الإنسان... فهو يولد ولديه استجابات فطرية معينة تحددها الوراثة فى بيئة معينة يقررها الماضى . وهو إذ يحيا فإن الاستجابات الفطرية والبيئة يتفاعلان فى تشكيل وعيه ، حيث يكون ذلك نتيجة لتوتر متبادل بين البيئة والاستعداد ينتج عنه تطور مستمر للعقل. وحيث أن كل فعل يحوى رد فعل مساو ومضاد فى الوقت نفسه فإن البطل بدوره يغير البيئة أثناء كل مرحلة انتقال تُغَيِّرُهُ هو. وبالطبع فبيئته تشتمل على أفراد آخرين . ومن ثم ، يكون مدى تأثيره فى الغير بعيداً . والإنسان مثل المجتمع ، يتكون من كيان نشط وأنظمة موروثة . فهو مخلوق تحكمه عوامل جسمانية ونفسية وشعورية وفطرية ، وهذه المتناقضات تتداخل بعضها مع بعض فى كيانه المادى ، وهو فى إطار الثقافة التى نشأ فيها ؛ مرن متجدد ، ثائر ، ممتص للواقع . ومن ثم ، فهو يشعر بهذا التوتر بين الكيان الجديد والفكر القديم ، توتر يفضى إلى ظهور الفكر الجديد نتيجة لهذه المتناقضات »(١٢) .

• • •

على أن ثمة قضية لصيقة بالبطل ، وتستلزم منا تحديد أبعادها ، أعنى قضية «الوعى الاجتماعى» كيف ينشأ ؟ وما صلة هذا الوعى بالطبيعة البشرية؟ على أساس أنه لايخرج عن كونه سلوكا إنسانيا ، والطبيعة البشرية هى ذاتها دراسة للسلوك الإنسانى ، كذلك فدراسة قضية الوعى الاجتماعى إنما تعد دراسة لجوهرة الطبيعة البشرية الأصيل . والفنان الروائى يسعى دائما إلى إلى استكناه تلك الطبيعة ويحاول أن يتفهمها ويسبر غورها من خلال نسجه لأبطـــاله .

---

(١٢) See : Gaudwell, CristoPher, Studies in A Dying Culture, London, John Lane the Bodley head, 1951, pp. 22, 25.

قضية الوعى الاجتماعى والطبيعة البشرية :

هناك تصوران للمفهوم الماركسى للسلوك الإنسانى يستقطبان أساسا فى التصور الأول : « ويلخص وجهة نظر ماركس فى أن ... مسار الحياة بوجه عام ، فى النواحى الاجتماعية والسياسية والفكرية يعتمد على اسلوب الإنتاج ... ومن ثم ، فوعى الأفراد ليس هو الذى يحدد وجودهم ، بل على العكس فوجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم » .

أما التصور الثانى فيؤكد دور الإنسان باعتباره عنصراً واعيا ، حراً ، ومسؤولا وبوصفه صانعا لتاريخه . وعلى الرغم من إيمان ماركس بأن وجود الأفراد الاجتماعى هو الذى يحدد وضعهم إلا أنه لايغفل إرادة الإنسان فى التغيير . فقد كتب فى المبحث الثالث عن فيورباخ : إن المذهب المادى الذى يقول بأن الناس هم نتاج الظروف والتنشئة(*) يغفل أن الناس هم الذين يغيرون الظروف وإن كان هذا لاينفى أن وضع الإنسان الاجتماعى هو مصدر آلامه وآماله»(١٣) .

لم يعتقد ماركس فى نظرة الفكر اليونانى الكلاسيكى لماهية الإنسان — هذه النظرة التى استندت إلى عقيدة مؤداها عدم المساواة الفطرية والطبيعية بين الأفراد . وقد وجدت هذه النظرة تعبيراً لها عند أرسطو ، إذ قال : إن بعض الأفراد يولدون عبيداً بالفطرة ومن ثم يكونون فى مرتبة واحدة مع الآلات والسائمة بوصفهم أدوات إنتاج . أضف إلى ذلك أنه لم يستثن طبقة للرجال الأحرار الذين يشتغلون بالحرف اليدوية الآلية أو التجارة . ولا ريب

(*) نرى كيف أن « محجوب عبد الدايم » فى القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ ، وحسنين « فى بداية ونهاية » لنجيب محفوظ أيضاً وقبل ذلك « حواء » فى « حواء بلا آدم » للاشين ، كيف أن هؤلاء الأبطال ممرة للوضع الاجتماعى الهابط .

(١٣) Rufus W. Mathewson, Jr., : The Positive hero in Russian Literature, Columbia University Press New York, 1959, pp. 148, 174.

أن فى هذه النظرة « تعقيلا » للضَيْم الاجتماعى على حد تعبير « جون ديوى » ومن ثم فهؤلاء الأفراد يملكون قصوراً فطريا فى الإدراك العقلى(١٤) . ولم يعتقد ، كما اعتقد غيره من الاجتماعيين والنفسانيين أن الإنسان يولد وهو أشبه بصفحة بيضاء ، حيث تترك الثقافة عليها بصماتها ، بل على النقيض من تلك النسبية الاجتماعية ، بدأ ماركس بفكرة أن الإنسان ، باعتباره إنسانا ، له كيان مُدْرَك يمكن التحقق منه ؛ وأن الإنسان يمكن أن يعرف بوصفه كذلك ليس فقط من الوجهة البيولوجية والتشريحية والفسيولوجية ؛ بل كذلك من الوجهة النفسية . . . وقد قال فى معرض مناقشته « لبنثام » أنه لمعرفة ما يفيد الكلب ، ينبغى على المرء أن يدرس طبيعة الكلب ، على أن هذه الطبيعة ذاتها يجب الاستخلاص من مبدأ المنفعة . وبتطبيق ذلك على الإنسان كان عليه أن يتجاوز كل الفعال الإنسانية ، والحركات والعلاقات التى تنشأ نتيجة لمبدأ المنفعة ، وأن ينظر أولا إلى الطبيعة البشرية بوجه عام ثم العناية بما يطرأ على تلك الطبيعة من تعديل فى كل حقبة تاريخية . . . وبناء على خط التقسيم هذا بين الطبيعة البشرية العامة والمدلول المحدد لها فى كل ثقافة ، فقد ميز ماركس بين نمطين من الدوافع والشهوات الإنسانية ، الثابتة منها أو المستمرة ، من نحو الجوع والدافع الجنسى ، والتى تكون قاسما مشتركا بين البشر والتى يمكن تعديلها أو اعلاؤها فقط فى شكلها وفى المسار الذى توجهه نحوه فى الثقافات المختلفة ، وبين الشهوات أو المطالب النسبية والتى لاتشكل جزءاً ثابتاً من الطبيعة البشرية ولكنها تدين بوجودها إلى أبنية اجتماعية معينة وإلى شروط معينة للإنتاج والعلاقات . ومثال الحاجات التى تكون نتاجا للبناء الرأسمالى للمجتمع . . . « الحاجة إلى النقود » بوصفها الحاجة الواقعية التى نجمت عن الاقتصاد الحديث ، وهى تعد بهذا المعنى طبيعة ثانية ، وهى التى ستخلق علاقة معينة وأخلاقيات معينة ومثلا معينة

---

(١٤) See : Dewey, John, Encyclopaedia of the social sciences. 1963, Volume VII p. 532.

بين من يملك وبين من يبيع قوة عمله مقابل حفنة من نقود »(١٥) .

وقد أوضح ماركس علاقة الفرد بالقوى المنتجة فقال : « إن العلاقات الاجتماعية ترتبط إرتباطا متينا بالقوى الإنتاجية . فالأفراد عندما يكتسبون قوى إنتاجية جديدة فإنهم يغيرون من أسلوبهم فى الإنتاج ، وبتغييرهم لإسلوب إنتاجهم ولطريقة كسب معاشهم ، فإنهم يغيرون كافة علاقاتهم الاجتماعية . فالطاحونة اليدوية تعطيك مجتمع السيد الإقطاعى ، بينما الطاحونة البخارية ، تعطيك مجتمع السيد الرأسمالى الصناعى .

والأفراد الذين ينشئون علاقاتهم الاجتماعية وفقا لإنتاجهم المادى ، ينشئون أيضا المبادىء والأفكار والمراتب ، طبقا لعلاقاتهم الاجتماعية . وهكذا تكون هذه الأفكار مرحلية وليست أبدية على اعتبار أن العلاقات الاجتماعية إنما تجد تعبيرها فى هذه المبادىء والأفكار . إنها معطيات تاريخية وانتقالية » (١٦) . وليس من شك أنه من الصعوبة أن نفصل بين الوعى الاجتماعى والوعى الفردى » فلا يمكن تصور « الأنا » أو « الوعى الفردى » إلا جزءاً من الـ « نحن » أو « الوعى الاجتماعى » وهذا ماصوره « كوولى » بالمرآة التى تطل النفس إلى ذاتها من خلالها Looking Glass Self.(١٧) مع الإيمان بضرورة خلق التوازن بين الفرد والمجتمع بحيث يكون الفرد مع المجتمع وليس فى المجتمع ، والفرق بين « مع » و « فى » هو الذى يحدد وضع الفرد والفردية .

---

(١٥) Fromm, Erick, Marxs Concept of man, Frederick, ungar Publishing Co. New York, 1998, pp. 24, 26.

(١٦) Marx Karl, The poverty of philosophy (1047), Foreign Languages publisbing House, Moscow, p. 122.

(١٧) د. عبد الجليل الطاهر : المشكلات الاجتماعية فى حضارة متبدلة ، مطبعة دار المعرفة بغداد، الطبعة الأولى ١٩٥٣ ، ص ١٨٥ .